﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمَا ١١٤﴾ [النِّساء: 114]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أشارتِ الآيات السَّابقة إلى وجود جماعة مِنَ البشر تعمل على تدابير الشَّرِّ للاضطراب والإخلال المجتمعيِّ بسبب واقعة طعمَة بن أبيْرق، وأنَّ الله مبطلٌ مكرهم وتدبيرَهم، ثمَّ جاءَت هذه الآية؛ لتشيرَ أنَّ الشَّرَّ لا يدبَّر إلَّا في خفاء، وطبيعة النَّاس تعلن الخير، وتخفي الشَّرَّ، وهذا التَّدبير للشَّرِّ حدث فيه تناجٍ وتسارر للكلام[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّا خَيۡرَ﴾: (خَيَرَ) أَصْله: الْعَطْف وَالْمَيْل، ثمَّ يحْمَل عَلَيْهِ، فَالْخَيْر: خِلَاف الشَّرِّ؛ لِأَنَّ كلَّ أَحَدٍ يَمِيل إِلَيْهِ، وَيَعْطِف عَلَى صَاحِبِهِ[2]، فالخير: ما يرغب فيه الكلّ، كالعقل مثلًا، والعدل، والفضل، والشَّيء النَّافع، وضدّه الشَّرّ، والمعنى في الآية: لا نفْعَ[3].

2) ﴿نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾: جذر الكلمة هو: (نَجَو)، نجاه نَجْوًا ونَجْوى، وأحد أصلَيْ الكلمة يدلّ على سَتْرٍ وَإِخْفَاءٍ[4]، والنَّجوى، والنَّجا: السِّرّ، والنَّجوى، والنَّجا: المتسارّون، وفي التَّنزيل: ﴿وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ [الإسراء: 47]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المجادلة: 7]، يكون على الصِّفة والإضافة، وناجى الرَّجل مناجاة، ونجاء: سارَّه، وانتجى القوم، وتناجوا: تسارّوا، والجمع: أنجية[5]، فمعنى النَّجوى في الكلام: ما يتفرَّد به الجماعة والاثنان سرًّا كان أو ظاهرًا[6].

3) ﴿مَعۡرُوفٍ﴾: جذر الكلمة هو عَرَفَ: وعَرَفت الشَّيء مَعرِفَةً وعِرفانًا، وأَمرٌ عارفٌ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1854.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خير).
(3) الرّاغب، المفردات: (خير).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نجو).
(5) ابن سيده، المحكم: (نجو).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نجو).

معروفٌ، والعرف: المعروف[1]، و(المعروف) ضدّ المنكَر، و(العرف) ضدّ النّكر، يقال: أولاه عرفًا، أي: معروفًا[2]، والمعروف اسمٌ لكلِّ فعلٍّ يعرف بالعقل أو الشَّرع حسنه، قال تعالى: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [ال عمران: 104]، والعرف والمعروف مِنَ الإحسان[3].

4) ﴿إِصۡلَٰحِ﴾: الصَّلاح ضدّ الفساد، وهما مختصَّان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل في القرآن تارة بالفساد، وتارة بالسَّيِّئة، قال تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التَّوبة: 102]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56]، والصّلح يختصّ بإزالة النِّفار بين النَّاس، يقال منه: اصطلحوا وتصالحوا[4].

5) ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾: جذر الكلمة هو (بَغَيَ)، وله أَصْلَانِ: أَحَدهمَا: طَلَب الشَّيْءِ، وَالثَّاني: جِنْسٌ مِنَ الْفَسَادِ، فالأَوَّل – وهو المراد هنا – بَغَيْت الشَّيْءَ أَبْغِيه؛ إِذَا طَلَبْته، وَيقَال: بَغَيْتكَ الشَّيْءَ؛ إِذَا طَلَبْته لَكَ، وَأَبْغَيْتكَ الشَّيْءَ؛ إِذَا أَعَنْتكَ عَلَى طَلَبِه[5]، والبِغيَة الحال الَّتي تبغيها[6].

6) ﴿مَرۡضَاتِ﴾: يقال: رضي، يرضَى، رضًا: فهو مرضيٌّ ومَرضوٌّ، ورضا العبد عنِ اللّه: ألَّا يكره ما يجرى به قضاؤه، ورضا اللّه عنِ العبد: هو أن يراه مؤتَمِرًا لأمره، منتهيًا بنهيه[7]، والمعنى هنا: رضا اللّه.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

حذَّر اللّه في هذه الآية من المسارَرَة في سياق الكلام على أولئك المتناجين المبيِّتين للمكيدة، وجعل الكلام شاملًا للَّذين يرمون الأبرياء أيضًا، يغمّون النَّاس ويحزنونهم، ولذلك أخَّره، وذكره بصورة قاعدة تشريعيَّة عامَّة تشملهم وغيرهم على نهج القرآن في مثل ذلك؛ إذ لا نفع في كثير من كلام النَّاس سرًّا فيما بينهم، إلَّا إذا كان حديثًا داعيًا إلى بذل المعروف من الصَّدقة، أو الكلمة الطيبة، أو التَّوفيق بين النَّاس، ومن يفعل تلك الأمور طلبًا لرضا اللّه تعالى راجيًا ثوابه، فسوف نؤتيه ثوابًا جزيلًا واسعًا[8].

(1) الخليل، العين: (عرف).
(2) الرّازي، مختار الصّحاح: (عرف).
(3) الرّاغب، المفردات: (عرف).
(4) الرّاغب، المفردات: (صلح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بغى).
(6) ابن دريد، جمهرة اللّغة، الجوهريّ، الصّحاح: (بغى).
(7) الرّاغب، المفردات: (رضي).
(8) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/123 - 124، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 97.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف بقوله تعالى: ﴿*لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾:

علم الله بأحوال المتناجين

جاءَت هذه الجملة استئنافيَّة ابتدائيَّة؛ لإفادة حكم النَّجوى وحالات المتناجين، وجاءَت تعليقًا على ما سبق من أحداث واقعة أبناء طعمَة بن أبيرق - وأيضًا - لتأسيس تشريع عامٍّ للحفاظ على وحدة المجتمع، وترابط أبنائه، وللتنديد بطبيعة بعض حالات النَّجوى؛ لأنَّها لا تكون في الغالب إلَّا للشَّرِّ والإفساد، وللدَّلالة على أنَّ النَّجوى في أغلب حالاتها قليلة الخير كثيرة الشَّرِّ، وهي مظهر من مظاهر الإثم والعدوان[1].

دلالة مجيء المسند إليه نكرةً ومنفيًّا في قوله تعالى: ﴿*لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾:

كثيرٌ من حالات التَّناجي لا تأتي بخير

للدَّلالة على كثرة حالات التَّناجي بين النَّاس - وأيضًا - إلى ترك حالات النَّجوى كلِّها أو عامَّتها، فإن كان لابدَّ منها؛ فتكون في صدقة أو معروف أو إصلاح، فقدَّم المسند إليه ونفاه، وجاء به نكرة، فأفاد تخصيصه، وحقّ المعرَّف حَمله على وجه تقوية الحكم، وحَقّ المنكَر حمله على وجه التَّخصيص.

وفي دلالة النَّفي معانٍ تحفظ على المجتمع ألفته ووحدته؛ لأنَّ الكثير من حالات النَّجوى تبعث الرِّيبة في مقاصد المتناجين، وأنَّها لا تغلب إلَّا على أهل الرَّيب والشّبهات، بحيث لا تصير دأبًا إلَّا لأولئك، فمن أجل ذلك نفى الله الخير عن أكثر النَّجوى[2]، وقد أفردت ثلاثة أقسام من أفعال الخير: إمَّا لإيصال المنفعة، وإمَّا لدفع المضرَّة[3].

دلالة خروج النَّفي إلى معنى التَّنبيه والتَّوبيخ:

خرج النَّفي إلى معنى التَّنبيه والتَّوبيخ، لمَّا كان قوم طعْمة قد

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/124 - 125.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/199.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/484.

ناجَوا النَّبيّ ﷺ في الدَّفع عنه، فنبَّههم سبحانه وغيرهم على ما ينبغي أن يقع به التَّناجي، ويحسن فيه التَّفاؤل والتَّجاذب على وجه ناهٍ عن غيره أشدَّ نهي، بقوله تعالى: ﴿*لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾؛ أي: نجوى جميع المناجين[1]، وفي فحوى خطاب الآية تنبيه شديد للنَّاس جميعًا، قد يصل إلى معنى التَّوبيخ، لمنِ اعتاد هذا الفعل، وكثَّرَه دون اكتراث إلى فحوى التَّنبيه فيه، فقال: ﴿كَثِيرٖ﴾؛ ليشير إلى الاعتياد بلا اكتراث، وخطورة هذا الطَّبع البشريِّ.

أعمال الظَّاهر يلزم لها رعاية أحوال الباطن في إخلاص النِّيَّة

دلالة استعمال (لا) النَّافية للجنس:

استعملت في قوله: ﴿*لَّا خَيۡرَ﴾؛ لأنَّها أقوى في الدَّلالة على نفي الخيريَّة عن كثير منَ التَّناجي، وسبب ذلك: أنَّ ما بعدها نكرة في سياق النَّفي، فأفاد العموم.

قوَّة دلالتها في نفي الخيريَّة

سرّ العدول عنِ التَّعبير بالشَّرِّ إلى نفي الخير:

آثر القرآن الكريم التَّعبير بنفي الخير بدلًا من ذكر الشَّرِّ في قوله تعالى: ﴿*لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾؛ لأنَّ لفظ الخير محبوب للنَّفس، بخلاف الشَّرِّ فهو مكروه، وأيضًا فيه دعوة إلى فعل الخير، وتحذير من فعل الشَّرِّ في النَّجوى؛ لأنَّه مذموم في كلِّ أحواله.

حسن لغة القرآن تعليمٌ للدّعاة

دلالة التَّعبير بالظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِي كَثِيرٖ﴾:

عبَّر بالظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ للدَّلالة على أنَّ عدم الخيريَّة في حالات التَّناجي تغلغل؛ إذ فيها تَغَلغل الظَّرف في المظروف.

تَغَلغل الظَّرف في المظروف

سرّ اختيار لفظ ﴿كَثِيرٖ﴾ دون غيره:

لفظ (بعض) مثلًا لا يؤدِّي المعنى المراد؛ لأنَّه يصدق على القليل والأقلِّ، وعلى الجزء منَ الكلِّ، بخلاف لفظ ﴿كَثِيرٖ﴾ في سياق الآية، فهو يشير إلى الجواب لسؤال يرد في الخاطر، كم نسبة التَّناجي

الكثرة تكون في الحالات والأعداد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/400.

الّتي لا خير فيها ؟ فكان قوله: ﴿كَثِيرٍ﴾ جوابًا على هذا التَّساؤل بأنَّ الأغلب لا خير فيها؛ لأنَّ الكثرة تكون في الحالات والأعداد.

دلالة الكناية في قوله: ﴿لَّا خَيۡرَ﴾:

الاحتراس في الحكم صفة قرآنيَّة وأخلاق إيمانيَّة

معنى ﴿لَّا خَيۡرَ﴾ أنَّه شرٌّ، بناء على المتعارف في نفي الشَّيء أن يراد به إثبات نقيضه؛ لعدم الاعتداد بالواسطة، كقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس: 32]، ولأنَّ مقام التَّشريع إنَّما هو بيان الخير والشَّرِّ[1]، فإن لم يكن خيرًا؛ فهو من قبيل الشَّرِّ.

وقد نفى الخير عن كثير من نجواهم، أو متناجيهم، وهي كناية عن موصوف؛ إذ علم من مفهوم الصِّفة أنَّ قليلًا من نجواهم فيه خيرٌ، ولا يخلو حديث النَّاس من تناج فيما فيه خير.

وفائدة هذه الكناية: تظهر في افتراضنا أنَّه لو قال: "الشَّرّ في نجواهم"؛ لشمل ذلك كلَّ تفصيلات مناجاتهم، وكلَّ عبارة يقولونها، وجعلها كلَّها في خانة الشَّرِّ، لكنَّه لمَّا كنَّى بقوله: ﴿لَّا خَيۡرَ﴾ منح الموضوع بعدًا آخر؛ إذ قد يضمَّن كلامهم ببعضٍ من عبارات الخير، أو ما يحقِّق نفعًا محدودًا، لكنَّ مضمون كلامهم على إجماله وفي كلِّيَّته لا يخرج منه حصيلة خير، فلو قال: "الشَّرّ في نجواهم"؛ لدلَّ ذلك على أنَّ كلَّ تفصيلات كلامهم، وكلَّ جملة يقولونها، هي من قبيل الشَّرِّ، وهذا قد يصدق، أو لا يصحّ على حالات النَّجوى بينهم.

سرّ التَّعبير بالإضمار في قوله ﴿نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾:

توظيف الحدث الخاصّ في بناء المجتمع

اختلف في عود الضَّمير (هم) على الخاصِّ أو العامِّ في قوله: ﴿نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾؛ فذهب بعضهم إلى أنَّ الضَّمير في ﴿نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾ عائد على قوم طعمة الَّذين تقدَّم ذكرهم، قاله: ابن عبَّاس وغيره. وقال مقاتل: هم قوم منَ اليهود ناجَوا قوم طعمة، واتَّفقا معهم على التَّلبيس على الرَّسول ﷺ في أمر طعمة[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/199.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/63.

وذكر ابن عاشور أنَّ الضَّمير الَّذي أضيف إليه "نجوى" ضمير جماعة النَّاس كلِّهم نظير قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ [هود: 5]، وليس عائدًا إلى ما عادَت الضَّمائر الَّتي قبله في قوله: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النِّساء: 108]؛ لأنَّ المقام مانع من عوده إلى تلك الجماعة؛ إذ لم تكن نجواهم إلَّا فيما يختصّ بقضيَّتهم، فلا عموم لها يستقيم معه الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[1].

وذكر أبو حيَّان الأندلسيّ أنَّ الآية جاءَت عامَّة، فاندرج أصحاب النَّازلة، وهم قوم طعمة في ذلك العموم؛ لكون الماضي والمغاير تشملهما عبارة واحدة[2].

دلالة إضافة الضَّمير إلى النَّجوى في قوله ﴿نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾:

التَّربية الفرديَّة تأسيسٌ لتربية المجتمع كلِّه

من دلالات إضافة الضَّمير: أنَّه عائد على النَّاس أجمع، وذلك من سياق الآيات الَّتي دلَّت على العموم، وفي عمومها يندرج أصحاب النَّازلة، وهذا منَ الفصاحة والإيجاز المضمَّن الماضي والغابر في عبارة واحدة[3]، وعلى هذا فالمقصود منَ الآية: تربية اجتماعيَّة دعَت إليها المناسبة، فإنَّ شأن المحادثات والمحاورات أن تكون جهرة؛ لأنَّ الصَّراحة من أفضل الأخلاق لدلالتها على ثقة المتكلِّم برأيه، وعلى شجاعته في إظهار ما يريد إظهاره من تفكيره، فلا يصير إلى المناجاة إلَّا في أحوال شاذَّة يناسبها إخفاء الحديث، فمَن يناجي في غير تلك الأحوال؛ رمي بأنَّ شأنَه ذميم، وحديثه فيما يَستحيي من إظهاره[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/198.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/65.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/112.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/198 - 199.

معنى حرف العطف ﴿أَوۡ﴾:

تشريك المعنى في العطف

عرض العلماء لمعاني هذا الحرف، وجعلوا منها التَّقسيم، وهو على نحو قولك: (الكلمة: اسم، أو فعل، أو حرف)، ويمكن أن تكون بمعنى: الواو، كقوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧﴾ [الصّافّات: 147]، ومن أحسن شواهده: حديث أبي هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ كان على جبل حراء فتحرَّك، فقال رسول الله ﷺ: "اسكن حراء فما عليك إلَّا نبيٌّ، أو صدِّيق، أو شهيد"، وعليه النَّبيّ ﷺ، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليٌّ، وطلحة، والزّبير، وسعد بن أبي وقَّاص،[1] ﷺ.

وفي مسند الإمام أحمد ورد قوله: "اهدأْ فما عليك إلَّا نبيٌّ أَو صدِّيقٌ أَوشهيد"[2]، ويمكن أن يكون ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ قد أفاد معنى (الواو).

وجه ذكر قوله: ﴿أَوۡ مَعۡرُوفٍ﴾ بعد (صَدَقَةٍ):

الاهتمام بها لعظم شأنها في مصالح العباد

أتى بذلك للتَّدليل على فائدة مهمَّة تؤخَذ منَ السِّياق؛ لتدلَّ على أنَّه يجوز أن يقرن بين الخاصِّ والعامِّ، فقرن هنا المعروف، بما هو أخصّ منه فقال: ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [النِّساء: 114]، فالملاحظ أنَّ الآية في تركيبها غايرت بين المعروف والصَّدقة والإصلاح بين النَّاس، ونظير ذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: 45] فقد غاير بينهما، ودخلت الفحشاء في المنكَر في قوله: ﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [آل عمران: 104]؛ ثمَّ ذكر مع المنكَر اثنين في قوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ [النَّحل: 90]، فجعل البغي هنا مغايرًا لهما، وقد دخل في المنكر في ذينك الموضعين[3].

(1) مسلم، الحديث رقم: (6328).
(2) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (9430).
(3) ابن تيميّة، الإيمان، ص: 131.

وممَّا يذكر في هذا المقام أنَّ الصَّدقة تشمل الفرض والتَّطوع، والمعروف عامٌّ في كلِّ برٍّ، فـ(المعروف) لفظ يعمّ الصَّدقة والإصلاح، ولكن خصَّا بالذِّكر اهتمامًا بهما؛ إذ هما عظيما الغناء في مصالح العباد[1].

وفي الحديث قوله ﷺ: (كلّ كلام ابن آدم عليه لا له، إلَّا أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله)[2]، وحدَّث سفيان الثَّوريّ بهذا الحديث أقوامًا، فقال أحدهم: ما أشدَّ هذا الحديث! فقال له: ألم تسمع: كلّ معروف صدقة، وأنَّ منَ المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق[3].

فيندرج تحت المعروف الصَّدقة والإصلاح. لكنَّهما جرِّدا منه، واختصَّا بالذِّكر اهتمامًا؛ إذ هما عظيما الشَّأن في مصالح العباد.

فائدة العطف بـ﴿أَوْ﴾:

اللفّ والنَّشر في ترتيب المعطوفات

عطف بـ﴿أَوْ﴾ مبالغة في تجريدهما، حتَّى صار القِسم قسيمًا[4]، وبحسب ذلك يظهر وجهٌ خاصٌّ من قبيل اللَّف والنَّشر، فصار المعروف لفًّا لنشر الصَّدقة والإصلاح بين النَّاس، ولكنَّه أخَّر الإصلاح، وخصَّه بالنَّاس، مع أنَّ الصَّدقة والمعروف هي للنَّاس أيضًا؛ لينتظم في فنٍّ بلاغيٍّ آخر، هو فنّ التَّرقِّي، وما يكتنفه في النَّصِّ منَ المعاني الجديدة.

دلالة التَّرتيب في هذه الأفعال:

الارتقاء في معاني أفعال الخير هو ارتقاءٌ مجتمعيٌّ

هذا التَّرتيب على تفسير المعروف بالفرد يكون للارتقاء في معاني أفعال الخير؛ كما روي ذلك عن ابن عبَّاس ومقاتل، فارتقى في ترتيبها، وهذا هو الأولى في ذكر الصَّالح منَ الأعمال والحثِّ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/112.
(2) التّرمذيّ، السنن، الحديث رقم: (2412)، وقال: حسن غريب.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/64.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/64.

عليها، فارتقى المعنى منَ الصَّدقة إلى الفرض إلى الإصلاح بين النَّاس، وذلك باعتباره أعلى درجات الأعمال الصَّالحة لما فيه من صلاح المجتمع والأمَّة، وقال ﷺ: "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصَّلاة والصِّيام والصَّدقة، قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة"[1].

وبحسب ذلك - أيضًا - يمكن أن يفهم الكلام على التَّرقِّي من جهة أخرى، فقد ذكر ثلاثة أنواع لأعمال الخير، من أصغرها إلى أكبرها، ومن أدناها أثرًا إلى أعلاها شأنًا وقيمة؛ لأنَّ عمل الخير بإيصال المنفعة؛ إمَّا جسمانيًا: وهو إعطاء المال، وإليه الإشارة بقوله: بصدقة، وإمَّا روحانيًا: وهو تكميل القوَّة النَّظريَّة بالعلوم، أو القوَّة العمليَّة بالأفعال الحسنة، ومجموعها عبارة عنِ الأمر بالمعروف، وإليه الإشارة بقوله: أو معروف[2]، وإمَّا أن يكون بدفع المضرَّة، وإليه الإشارة بقوله: أو إصلاح بين النَّاس[3].

دلالة البدء بالصَّدقة على تفسيرها بالواجب:

المجتمع النَّاهض يترقَّى أفراده في صنائع المعروف والإصلاح

دلَّ البدء بالصَّدقة على تفسيرها بالواجب، وإطلاق المعروف على ما يتصدَّق به على سبيل التَّطوّع[4]، وبحسب هذا المعنى يكون التَّدلِّي في معاني الإصلاح بحسب الكثرة والقلَّة في أفعال الخير ممَّا يفعله النَّاس؛ لأنَّ الآية وصفٌ لأعمالهم، فاقتضى أن يفعل ذلك جماعة منهم بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾، فيكون الأمر بالصَّدقة يعمل به طيف كبير منَ النَّاس؛ باعتباره الواجب، فيلتزم في أوانه النَّاس، أمَّا المعروف؛ فيكون الأقلَّ باعتبار الصَّدقة على سبيل التَّطوّع، وأمَّا الإصلاح بين النَّاس؛ فيقتصر على فئة قليلة جدًّا منَ المصلحين والعلماء.

وظاهر قوله: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أنَّه في كلِّ شيء يقع فيه اختلاف ونزاع، أو هو خاصٌّ بالإصلاح بين طعمة واليهوديِّ المذكورين[5].

(1) الإمام أحمد، المسند، وإسناده صحيح.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/33.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/66.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/597.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/64.

ومع حالة أخرى للتَّدلِّي: فهذه الثَّلاثة تضمَّنتِ الأفعال الحسنة، وبدأ بأكثرها نفعًا؛ وهو إيصال النَّفع إلى الآخرِ، ونبَّه بالمعروف على النَّوافل الَّتي هي منَ الإحسان، والتَّفضّل، والإصلاح بين النَّاس على سياستهم، وما يؤدِّي إلى نظم شملهم[1].

التَّناوب في اقتراح أفعال الخير كبيرها وصغيرها، من الدَّعوة إلى إصلاح العقول والقلوب

وجه ذكر العامِّ بعد الخاصِّ، ثمَّ الخاصِّ بعد العامِّ

تظهر دلالة ذكر العامِّ بعد الخاصِّ، ثمَّ الخاصِّ بعد العامِّ في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾؛ لأنَّه لمَّا خصَّ الصَّدقة لعزَّة المال في ذلك الحال؛ عمَّم بقوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾، أيَّ معروف كان، ممَّا يبيحه الشَّرع من صدقة وغيرها، فذكر الخاصَّ ثمَّ ذكر العامَّ، وفائدة ذلك: أنَّه حينما يذكر (الصَّدقة) تتَّجه الأنظار والقلوب نحو هذا العمل الجليل الَّذي هو التَّصدّق بالمال، ولعلَّ ذلك العمل يختصّ به أهل الأموال أكثر من غيرهم، فعندما يقول: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ فقد عمَّم في ذكر أنواع الخير، فشمل المعروف النَّاسَ جميعًا، فكلّ عمل صالح هو معروف حتَّى إن كان كلمة طيِّبة يقولها، أو ابتسامة يطلقها، وقوله ﷺ مشهود في ذكر المعروف: "لا تحقرنّ منَ المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق"[2]، فشمل كلَّ خير يمكن أن يقوم به الإنسان، وشمل النَّاس جميعًا من أهل المعروف والخير، ثمَّ انتقل من هذا العامِّ منَ المعروف إلى ذكر أخصِّ أنواع المعروف؛ وهو إصلاح ذات البين، ولمَّا كان في إصلاح ذات البين من جلالة القدر، وعظيم الشَّأن؛ نبَّه على عظيمه بتخصيصه بقوله: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، وما ذاك التَّحوّل منَ الخاصِّ إلى العامِّ، ثمَّ منَ العامِّ إلى الخاصِّ إلَّا للتَّنبيه على عظيم الصَّدقة، والمعروف، والإصلاح، وجعلها محاور

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/66.
(2) مسلم، الحديث رقم: 6783.

رئيسة، وعناوين كبرى، تندرج تحتها أفعال الخير كلّها، فيكون المعنى: لا خير في كثير من نجواهم، ومن أراد الخير من أبوابه؛ فعليه بالصَّدقة، والمعروف، والإصلاح بين النَّاس.

ونجد في تحوّل الأسلوب بين العامِّ والخاصِّ؛ تنبيهًا لترك ما لا خير فيه، وإرشادًا وترغيبًا في أفعال الخير، وتعريفًا بمحاورها الرَّئيسة، وحثًّا على العمل بها، فذكر النَّاس عامَّة، فقد بيَّن ﷺ أنَّ غير المستثنى منَ التَّناجي لا خير فيه، وكلّ ما انتفى عنه الخير كان مجتنبًا[1].

وذكْر الخاصَّ بعد العامِّ وجهٌ من وجوه الإطناب، فيذكر لما له من مزيَّة تفرّده دون سواه منَ العامِّ، وفيه منَ المزايا البلاغيَّة العظيمة الَّتي تحرِّك مكامن النَّفس، وتعيد بناء الفكرة الذِّهنيَّة بما يتوافق مع الشَّرع من عمل الخير ونبذ الشَّرِّ، فتجعل ذلك كلَّه محتوى في صورة فنِّيَّة بأسلوب بلاغيٍّ معجز.

بلاغة الإيجاز في قوله: ﴿أَوۡ مَعۡرُوفٍ﴾:

الإيجاز في قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾، أي: أمر بمعروف، ولم يقل: أمر بمعروف أو نَهَى عن منكر؛ مع أنَّ النَّهي عنِ المنكر ملازم للأمر للمعروف في مَواضِع كثيرةٍ منَ القرآن الكريم، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [الأعراف: 157]، وقوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110]، وقوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [التّوبة: 71]، إذ يدخل في المعروف كلّ خير، وفي المنكر كلّ شرٍّ[2].

يدخل في المعروف كلّ خير، وفي المنكر كلّ شرٍّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/400.

(2) ابن تيميّة، الإيمان، ص: 131.

بلاغة الاستثناء، وفروق المعاني:

تظهر بلاغة الاستثناء، وذلك بناء على اختلاف العلماء في المراد بالاستثناء بين الاتِّصال والانقطاع، والمعاني المترتِّبة على ذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾، والتَّقدير: إلَّا نجوى مَن أمَرَ بصدقة[1]، على سبيل الاستثناء المتَّصل، وهو مجمل يَصْدق على كلِّ نجوى تصدر منهم فيها نفع، وليس فيها ضرر، أو بلا تقدير، أي: لَكِن من أَمر بصدقة، أي: على سبيل الاستثناء المنقطع، إن كانتِ النَّجوى بمعنى: المتناجين، وهو مستثنى من كثير، فحصل من مفهوم الصِّفة، ومفهوم الاستثناء قسمان منَ النَّجوى، يثبت لهما الخير، ومع ذلك فهما قليل من نجواهم[2]، والمعنى: لا خير في كثير من نجواهم إلَّا فيمن أمر بصدقة، كقولك: لا خير في القوم إلَّا نفر منهم، والثَّاني: أن تجعله تبعًا للنَّجوى، كما تقول: لا خير في جماعة منَ القوم إلَّا زيد، إن شئت؛ أتبعت زيدًا الجماعة، وإن شئت؛ أتبعه القوم[3].

وقال الزَّمخشريّ: "إلَّا نجوى من أمر على أنَّه مجرور بدل من (كثير)، كما تقول: لا خير في قيامهم إلَّا قيام زيد، ويجوز أن يكون منصوبًا على الانقطاع، بمعنى: ولكن من أمر بصدقة ففي نجواه الخير"[4].

وقد نظر ابن عطيَّة إلى تقدير الكلام من جهة المستثنى منه، فقال: وتحتمل اللَّفظة في هذه الآية أن تكون الجماعة، وأن تكون المصدر نفسه، فإن قدَّرناها الجماعة، فالاستثناء متَّصل، كأنَّه قال: لا خير في كثير من جماعاتهم المنفردة المتسارَّة إلَّا من أمر بصدقة، وإن قدَّرنا اللَّفظة المصدر نفسه، كأنَّه قال: لا خير في كثير من تناجيهم، فالاستثناء منقطع بحكم اللَّفظ، ويقدَّر اتِّصاله على حذف مضاف، كأنَّه قال: (إلَّا نجوى من)، وقال بعض المفسِّرين: النَّجوى كلام الجماعة المنفردة كان ذلك سرًّا أم جهرًا[5].

(1) الأخفش، معاني القرآن: 1/266.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/199.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/33.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/597.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/112.

أخرج القرآن هذه الثَّلاثة بطريق الاستثناء مع أنَّها أخرجت ابتداءً بمفهوم الصِّفة:

التَّفصيل بعد الإجمال منهج سديد في الدَّعوة والتَّربية

أخرج القرآن هذه الثَّلاثة، وجعلها قِسمًا أخرجه الاستثناء، وهي: الصَّدقة، والمعروف، والإصلاح بين النَّاس، وهذه الثَّلاثة لو لم تذكر؛ لدخلَت في القليل من نجواهم الثَّابت له الخير في قوله: ﴿*لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾، فلو اكتفى بذلك لعلم أنَّ قليلًا من نجواهم هو منَ الخير، فلمَّا ذكرت بطريق الاستثناء علمنا أنَّ نظم الكلام جرى على أسلوب بديع، فأخرج ما فيه الخير من نجواهم ابتداءً بمفهوم الصِّفة، ثمَّ أريد الاهتمام ببعض هذا القليل من نجواهم، فأخرج من كثير نجواهم بطريق الاستثناء، فبقي ما عدا ذلك من نجواهم، وهو الكثير موصوفًا بأن لا خير فيه، وبذلك يتَّضح أنَّ الاستثناء متَّصلٌ، وأن لا داعي إلى جعله منقطعًا، والمقصد من ذلك كلِّه الاهتمام والتَّنويه بشأن هذه الثَّلاثة[1].

سرّ عطف قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ على ما سبق:

العمل لا يكون له روحٌ إلَّا بالنِّيَّة الصَّحيحة

لأنَّه لمَّا كان التَّقدير: فمَن أمر بشيء من ذلك؛ فنجواه خيرٌ، وله عليها أجر، عطف عليه قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾، أي: الأمر العظيم الَّذي أمر به من هذه الأشياء، ويكون ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ العمل لا يكون له روحٌ إلَّا بالنِّيَّة الصَّحيحة؛ فقال: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ﴾، أي: في الآخرة بوعد لا خلف فيه ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[2].

دلالة الاحتباك في الآية:

الحوار الصَّريح خير وسيلة لحلِّ المشاكل

في الآية احتباك، والتَّقدير: (لا خير في كثير من نجواهم ولهم عليها إثمٌ إلَّا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين النَّاس فنجواه خير ومَن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة اللّه، فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا)،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/200.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/401.

وفائدة هذا الاحتباك: الإيجاز أوَّلًا، ثمَّ بيان أنَّ موضوعات النَّجوى فيها منَ التَّداخلات ما يكون أغلبها ليس في خير، وقد يكون المعنى المراد في النَّجوى أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح، لكن يداخل تلك الموضوعات كثير منَ الغيبة والقدح وغيرها، فيمتزج أحيانًا الخير بالشَّرِّ، فجاء أسلوب الاحتباك ليعكس واقع حال النَّجوى، ولبيان أنَّ أسلوب المناجاة أسلوب استثنائيٌّ، وينبغي أن يعمل المجتمع بالحِوار الصَّريح.

وقد ألزمتِ الآية في هذا الخبر الأفراد والمجتمعات تقليل هذا الأسلوب في التَّعامل، إلَّا في أحوال خاصَّة يكون في النَّجوى ما يضمن المعروف والإصلاح.

دلالة الجملة الاعتراضيَّة في قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾:

صدق النِّيَّة لله باب القبول

دلَّتِ الجملة الاعتراضيَّة على الوعد بالثَّواب على فعل المذكورات؛ إذا كان لابتغاء مرضاة الله، فدلَّ على أنَّ كونَها خيرًا وصف ثابت لها لما فيها منَ المنافع، ولأنَّها مأمور بها في الشَّرع، إلَّا أنَّ الثَّوابَ لا يحصل إلَّا عن فعلها ابتغاء مرضاة الله، كما في حديث: "إنَّما الأعمال بالنِّيَّات"[1]، فاحترس بذكر من يفعل هذه الأفعال الصَّالحة منَ التَّصدّق والمعروف والإصلاح بين النَّاس أن يكون بنيَّة ابتغاء الثَّواب عند الله ومرضاته، فإنَّ الله سيؤتيه الأجر العظيم والثَّواب الجزيل جزاء عمله ونيَّته، ومفهوم المخالفة يدلّ على أنَّ من يفعل ذلك ابتغاء شيء دون مرضاة الله؛ فلن يؤتيه الله الأجر والثَّواب؛ لأنَّه لم يفعله طلبًا لذلك الأجر، فيعطي الله من طلب أجره وثوابه دون غيرهم.

سرّ تكرار ﴿مَنْ﴾:

يفيد هذا التَّكرار التَّوكيدَ

تكرَّرت ﴿مَنْ﴾ في الآية، فقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾، وقد يفيد هذا التَّكرار التَّوكيدَ، إن كانت الثَّانية

(1) البخاريّ، رقم: (54)، ومسلم، الحديث رقم: (1907).

قصد منها الإشارة إلى الشَّخص نفسه في الأولى، فيكون مَن يفعل هو نفسه مَن أمر، وهذا هو كمال المعروف، أو كان الآمر هو نفسه المطاع في قومه، فيأتمرون بأمره، فيطلق الفعل على غير فاعله على سبيل المجاز العقليِّ، وهذا التَّغاير بين الأمر والفعل منح الموضوع مساحة واسعة في التَّفعيل والتَّطبيق.

وجه الالتفات الفعليّ بين ﴿أَمَرَ﴾ و﴿يَفْعَلْ﴾:

التَّواصل بين الأمر والفعل والانتقال من الأوامر إلى الأفعال

النَّاظر في الآية يجد الانتقال بين الأمر والفعل، حيث التفتَ منَ الفعل الماضي في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ إلى الفعل المضارع في قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ﴾ على اعتبار أنَّ الآمر في الأولى هو الفاعل في الثَّانية، وفائدة هذا الالتفات: التَّواصل بين الأمر والفعل أوَّلًا؛ والانتقال منَ الأوامر إلى الأفعال ثانيًا؛ إذِ التفتَ منَ الأمر، وهو في الماضي؛ ليجعل المخاطب يقف على تفعيل ذلك الأمر، وجعله فعلًا مؤثِّرًا، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾، ثمَّ ما في الفعل المضارع من فائدة التَّجدّد والاستمرار، فلعلَّ أمرًا واحدًا تكون نتيجته أفعالًا كثيرةً، وخصَّ من أمَرَ بهذه الأشياء، وفي ضمن ذلك أنَّ الفاعل أكثر استحقاقًا منَ الآمر، وإذا كان الخير في نجوى الأمر به؛ فلا يكون في مَن يفعله بطريق الأولى[1].

فإن قيل كيف قال ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾، ثمَّ قال ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾؟

وجوابه: أنَّه ذكر الأمر بالخير ليدلَّ به على فاعله؛ لأنَّ الآمر بالخير لمَّا دخل في زمرة الخيريين كان دخول فاعل الخير فيهم من باب أولى، ويجوز أن يراد: ومن يأمر بذلك، فعبَّر عنِ الأمر بالفعل؛ لأنَّ الأمر أيضًا فعل منَ الأفعال[2]، وهذا على سبيل المجاز.

ويضاف إلى ذلك أنَّ المقصود التَّرغيب في الفعل، وفيه إشارة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/66.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/34.

إلى أنَّه يجوز أن يعَبَّر عنِ الأمر بالفعل، إذ هو يكَنَّى به عن جميع الأشياء، كما إذا قيل: حلفت على زيدٍ وأكرمته، وكذا وكذا، فتقول: نعم ما فعلت[1].

بلاغة المجاز في معنى (الأمر) في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾:

يعبَّر بالفعل عنِ الأمر، كما يعبَّر بـه عـن سائـر الأفعال

وتظهر بلاغة المجاز في قوله تعالى: ﴿أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾؛ فالمعنى: حثَّ، وحضَّ عليها[2].

فلمَّا ذكر أنَّ الخير في قوله: ﴿مَنْ أَمَرَ﴾؛ ذكر ثواب من فعل، ويجوز أن يريد: ومَن يأمر بذلك، فيكون التَّقدير: إلَّا من أمر بصدقة... ومن يأمر بذلك طلبًا لرضا اللّه، فيعبَّر بالفعل عنِ الأمر، كما يعبَّر به عن سائر الأفعال، وهو على سبيل المجاز المرسَل، وعلاقته المسَبَّبيَّة، والمجاز في ﴿أَمَرَ﴾ بمعنى: القول أو الفعل أو التَّوجيه.

وجه الكناية في قوله: ﴿أَمَرَ﴾:

الـــدَّلالـــة عـلى الـتَّـأثـير والسّلطان؛ إذ يـحـتـاج الـحـقّ لإقامته إليهما

تأتي هذه المعاني من إيحاءات لفظ (الأمر) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾، فالمعنى: أنَّ من يأمر له القدرة على تنفيذ أفعال الخير تلك، أو أنَّ له التَّأثير والسّلطان على جعل الآخرين يأتمرون بأمره، ويحتكمون إلى قوله، فيفهم من ذلك أنَّ النَّجوى في الخير تكون لأكابر القوم، مِمَّن يملكون زمام المجتمع، وحركة تنفيذ الإصلاح بين النَّاس، فيأمرون بالصَّدقة والمعروف والإصلاح بين النَّاس فيستجاب لهم في ذلك كلِّه، فيكون مَن يأمر، هم أكابر القوم، ومَن يفعل هم مَن يستجيبون لأوامرهم من أهل الخير والصَّلاح.

بلاغة الالتفات في القراءات:

الالـتـفـات إلى مـراعاة الـنَّـاس انـقـلاب في أفعال الخير فيه مفاسد

قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ قرأه أبو عمرو، وحمزة، وخلف بالياء التَّحتيَّة ﴿يُؤْتِيهِ﴾ على ظاهر قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[3]، وقرأ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 5/145.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/470، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/64.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/200.

الجمهور: ﴿نُؤۡتِيهِ﴾[1] بنون العظمة على الالتفات منَ الغيبة في قوله: ﴿مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ إلى التَّكلّم[2]. ونكتة هذا الالتفات تصوير هذا العطاء بأعظم ما يكون عليه، واستحضار عظمة الله ﷻ ساعة إيتاء الأجر؛ ليناسب ما بعده من قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ﴾، فيكون إسناد الثَّواب والعقاب إلى ضمير المتكلِّم العظيم، وهو أبلغ من إسناده إلى ضمير الغائب، ومن قرأ بالياء؛ لحظَ الاسم الغائب في قوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾، وفيه دليل على أنَّه لا يجزي منَ الأعمال إلَّا ما كان فيه رضا الله تعالى، وخلوصه لله دون رياء ولا سمعة[3].

والتَّنكير والتَّنوين في قوله: ﴿أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ مناسب لمقام العظمة في الآية الكريمة.

وجه الوصل في قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾:

الوصل بين الجملتين لاتِّفاقهما في الخبريَّة

الواو في قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ للوصل بين الجملتين لاتِّفاقهما في الخبريَّة، فلمَّا أخبر في الأولى بانتفاء الخيريَّة عن أفعال النَّجوى في مجالس النَّاس واستثنى منها ثلاثة أقسام، أو أركان، أو صور رئيسة من أفعال الخير، وصله بخبر آخر ترغيبًا في الأوَّل بما يتضمَّنه، فارتقى بتلك الأقسام، فجعلها ابتغاء مرضاته سبحانه، فقال: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾، وفي ذلك ما فيه من تحويلات الفكر لدى المتلقِّين، فلا يؤجر فاعل الخير إلَّا أن تكون أفعاله ابتغاء مرضاته سبحانه، فاندرج مع السّموِّ المجتمعيِّ سموًّا في النِّيَّة والنَّفس، وزاد على فعل الخير عبادة خفيَّة، هي إصلاح النِّيَّة، وابتغاء رضاء الله تعالى.

(1) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 237.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/200.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/66.

سرّ الإشارة بأداة البعد ﴿ذَٰلِكَ﴾ في: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾:

التَّشويق إلى الارتقاء إلى منازل مرضاة الله

أشار بأداة البعد ﴿ذَٰلِكَ﴾ مع قرب العهد به؛ للإيذان بعلوِّ منزلته، ورفعة شأنه، وترتيب الوعد على فعله[1]، ثمَّ ما في ذلك التَّشويق للارتقاء إلى منازل مرضاة الله سبحانه، قال مجاهد: هذه الآية عامَّة للنَّاس يريد أنَّه لا خير فيما يتناجى فيه النَّاس، ويخوضون فيه منَ الحديث إلَّا ما كان من أعمال البرِّ، ثمَّ بيَّن أنَّ ذلك إنَّما ينفع مَن ابتغى به ما عند الله[2]، وفي ذلك ضمانٌ للفرد وللمجتمع وحصانةٌ لهما في مسألتين: الأولى: ضمان عمل الخير، والأخرى: ضمان صحَّة التَّصرّف، واتِّباع أصول الأداء وخطواته بما يرضي الله سبحانه.

سرّ التَّأكيد بالمصدر في قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾:

رضاء الله هو الهدف الأسمى في حياة المؤمنين

أكَّد هذه الخيريَّة وعلَّلها بقوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ مَن فعل خيرًا دون ابتغاء مرضاة الله؛ فليس له على الله شيء منَ الأجر والثَّواب؛ لأنَّه لم يفعلها ابتغاء رضاء الله وثوابه.

وصِيغَتِ العِلَّة بصيغة المصدر ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ لتأكيد عمق الهدى الَّذي يقصده فاعل الخير، وزاد في ذلك العمق جمع كلمة ﴿مَرْضَاتِ﴾، وإضافتها إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، فكان الجزاء بقدر عظيم ورد وصفه في قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وهو فوق ما يمكن تقديره عند البشر، فتوسَّع في وصفه دون ذكر تفاصيله، وأكَّد بأداة التَّأكيد ﴿فَسَوْفَ﴾، وأتبعها بنون العظمة، ونكَّرَ في قوله: ﴿أَجْرًا﴾ و﴿عَظِيمًا﴾؛ لتعظيم ذلك الأجر، وتشويقًا إليه، وإلى تحصيله.

والمعنى: أنَّ هذه الأقسام الثَّلاثة منَ الطَّاعات، وإن كانت في غاية الشَّرف والجلالة، إلَّا أنَّ الإنسان إنَّما ينتفع بها إذا أتى بها لوجه الله، ولطلب مرضاته، فأمَّا إذا أتى بها رياءً وسمعةً، فانقلبت لتكون منَ المفاسد، وذلك تبعًا لفساد النِّيَّة، وهذه الآية من

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/332.
(2) الواحديّ، الوجيز، ص: 289.

أقوى الدَّلائل على أنَّ المطلوب منَ الأعمال الظَّاهرة رعاية أحوال القلب في إخلاص النِّيَّة، وعدم الالتفات إلى غرضٍ سوى طلب رضوان الله تعالى[1].

حكمة التَّعبير بالمفعول لأجله ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾:

أولاً: للدَّلالة على الحرص على ابتغاء رضا الله في الأعمال، والأفعال، والأقوال.

ثانيًا: أنَّ الابتغاء يحمل معنى: الاجتهاد في الطَّلب، والمراد هنا: بذل الجهد في البعد عنِ المناجاة والمسارَّة مهما كان الأمر؛ لأنَّها في الغالب لا خير فيها.

ثالثًا: وللحرص على بذل الجهد في الأمور الثَّلاثة المذكورة؛ لتعلّق مصالح العباد بها.

التَّعبير بالمصدر الميميّ ﴿مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ دون المصدر (الرِّضا):

تصوير المعنى واقعًا قائمًا متحقِّقًا

يصوِّر المصدر الميميّ المعنى واقعًا قائمًا متحقِّقًا في الوجود، أمَّا المصدر غير الميميِّ؛ فيصوِّر المعنى مجرَّدًا، والمثال على ذلك: كلمة (مقال)، فإذا كانت هذه الكلمة بمعنى: (القول)؛ فإنَّ التَّعبير به يصوِّر معنًى مجرَّدًا من غير نظرٍ إلى كونه تحقَّق وجوده أم لا، أمَّا كلمة (مقال)؛ فتصوِّر معنًى وجد وتحقَّق، أو في صورة الوجود المتحقِّق، وعلى ذلك يكون معنى قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أنَّهم فعلوا هذه الأشياء طالبين رضا الله تعالى، واعتبروه حقيقة مؤكَّدة تصوَّروا حقيقة وجوده، فمن أجله بذلوا كلَّ الجهد في تحقيق الأمور الثَّلاثة.

دلالة استخدام ﴿فَسَوۡفَ﴾ بدلًا منَ (السِّين):

تعليم المسلمين عدم استعجال الثَّواب

آثر القرآن الكريم استخدام ﴿فَسَوۡفَ﴾ بدلاً منَ السِّين؛ لتعليم المسلمين عدم استعجال الثَّواب.

سرّ اختيار الفعل ﴿نُؤۡتِيهِ﴾ بدلًا من (نعطيه):

الجزاء منحة إلهيَّة

آثر القرآن الكريم الفعل ﴿نُؤۡتِيهِ﴾ بدلًا من نعطيه؛ لأنَّه المناسب للسِّياق في مقام الأجر العظيم، وهو منَ المعاني العظيمة الَّتي يستخدم فيها فعل الإيتاء.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/34.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

نَجْوى، ومسارَّة:

والفرق بين النَّجوى والسِّرِّ؛ أنَّ النَّجوى اسم للكلام الخفيِّ الَّذي تناجي به صاحبك، كأنَّك ترفعه عن غيره، وذلك أنَّ أصل الكلمة الرِّفعة، ومنه النَّجْوة منَ الأرض، وسمِّي تكليم الله تعالى موسى ﷺ مناجاة؛ لأنَّه كان كلامًا أخفاه عن غيره، والسِّرّ: إخفاء الشَّيء في النَّفس، ولو اختفى بستر، أو وراء جدار، لم يكن سرًّا، ويقال: في هذا الكلام سرٌّ؛ تشبيهًا بما يخفى في النَّفس، ويقال: سرِّي عند فلانٍ، أي: ما يخفيه في نفسه من ذلك، ولا يقال: نجواي عنده، وتقول لصاحبك: هذا سرٌّ ألقيه إليك، تريد المعنى الَّذي تخفيه في نفسك، والنَّجوى: تتناول جملة ما يتناجى به منَ الكلام، والسِّرِّ: يتناول معنى ذلك، وقد يكون السِّرّ في غير المعاني مجازًا، تقول: فعل سرًّا، وقد أسرَّ الأَمرَ، والنَّجوى لا تكون إلَّا كلامًا[1].

(لا خير) و(لا نفع):

استعمل القرآن الكريم النَّفع والخير في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: 188]، فنفى نسبة النَّفع إلى نفسه، ونسبه إلى الله، فقال: ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا﴾ [الأعراف: 188]، ثمَّ قال: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [الأعراف: 188]، فالخير معروف مقدَّر عند الإنسان بما يستعين به على حياةٍ أفضل، أمَّا النَّفع؛ فهو من قبيل الغيب، ولا يعلم مواضع النَّفع إلَّا الله، فالنَّفع: ما يستعان به في الوصول إلى الخيرات، وما يتَوَصَّل به إلى الخير فهو خيرٌ، فالنَّفع خيرٌ، وضدّه الضّرّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا﴾ [الفرقان: 3][2].

ولمَّا قال: ﴿*لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾ بيَّن أنَّ مقاصد النَّجوى لم تكن مقاصد خير، ولو كانت مقاصد خير لمدحت كما مدحت الصَّدقة، ومدح المعروف والإصلاح.

الفعل والعمل:

الفعل كناية عن كلِّ عمل متعدٍّ أو غير متعدٍّ، مأخوذ من فعل يفعل فَعلًا وفِعلًا؛

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 63.
(2) الرّاغب، المفردات: (نفع).

فالفعل هو التَّأثير في الشَّيء من جهة مؤثِّر، أمَّا العمل فمأخوذ من عمِل يعمل عملًا، والعمل: إيجاد الأثر في الشَّيء، ويأتي لما فيه امتداد منَ الزَّمن وإبطاء؛ كأن يقال: فلان يعمَل الطِّين خزفًا، ويعمل الخوص زِمْبِيلًا، ولا يقال: يفعل ذلك؛ لأنَّ المراد من ذلك الشَّيء هو إيجاده[1].

ومنَ الفروق - أيضًا - أنَّ العمل أخصّ منَ الفعل؛ فهو يجيء في العمل الصَّالح والسَّيِّئ.

ومنَ الفروق - أيضًا - أنَّ الفعل يكون بقصد وبغير قصد، بخلاف العمل، فهو لا يصدر إلَّا عن قصد.

الأجر والجزاء:

الأجر في اللّغة له معنيان: جزاء العمل، وجبر العظم المكسور، ويجمع بين المعنيين أنَّ أجرة العامل بمنزلة تعويض يتلقَّاه جزاء ما بذله من كدٍّ وجهد؛ فهذا التَّعويض كأنَّه شيء يجبر به، كما يجبر العظم المكسور، أمَّا الجزاء فهو المقابلة على الخير بالثَّواب، وعلى الشَّرِّ بالعقاب، وأصله الغَناء والكفاية، والجزاء يكون مماثلًا مساويًا للمجزيِّ عنه؛ لأنَّ أصل الجزاء في كلام العرب القضاء والتَّعويض، هذا معناهما في معاجم اللّغة، أمَّا في الاستعمال القرآنيِّ؛ فالأجر لابدَّ أن يسبقه عمل وجهد وبذل، قال تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سبأ: 47]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: 27]، وقد يكون الأجر في الآخرة، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [البقرة: 112]، وقد يكون الأجر منَ النَّاس، كما في قوله: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: 25]، والأجر لا يكون إلَّا في الخير غالبًا، أمَّا الجزاء؛ فيأتي ليدلَّ على ما فيه الكفاية منَ المقابلة، نحو قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشّورى: 40].

ومنَ الفروق أيضًا أنَّ الجزاء يكون في الخير والشَّرِّ، قال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البيّنة: 8]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الإسراء: 98].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 136.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»